

المناهل



5

المناهل

تصدرها

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
الرباط - المغرب



ربيع الأول 1396
مارس 1976

العدد الخامس
السنة الثالثة

الكلمة والكلام

محمد العربي الخطابي

للألفاظ سحر وأى سحر ، يعلم ذلك الذين أوتوا سر الكلمة ، وفتتوا بها منطوقة أو مكتوبة ، شعرا أو نثرا .

ليست الألفاظ مجرد مواد معجمية جافة أو مفردات لغوية جامدة ، بل انها سمات تحمل في طياتها بذور التطور ، وتزخر بالايحاءات الفكرية والوجدانية .

وقد تعقبت طائفة من الألفاظ التي نستخدمها في حياتنا اليومية ، فتكشفت لى من أبعادها ودلالاتها ما أدهشنى .

وسأقتصر فى هذا المقال على البحث فى لفظ « الكلمة » ، هذا الجذر الذى يتألف من كاف ولام وميم .

ولست أزعج أننى أقوم فى هذا ببحث علمى ، فليس هذا من شأنى ولا أنا من أهل التخصص فيه ، إنما هى جولة أقوم بها ورائدى فى ذلك الذوق وحده وقصدى أن أوفق الى الكشف عن بعض مكامن الطاقة الفكرية والرمزية للكلمة .



تعلمنا ونحن أطفال فى المدارس أن للكلمة والكلام معنى اصطلاحيا يختص به علم النحو . وقد أدركنا فيما بعد أن « الكلمة » فيض من المعانى والدلالات والأفكار ، شأنها فى ذلك شأن « الكلام » .

وقد تكون الكلمة لفظا واحدا ، وهو ما عبر عنه ابن هشام فى (شرح شذور الذهب) بقوله : « الكلمة قول مفرد ، والمراد بالقول : اللفظ الدال على معنى ، والمراد بالمفرد : « ما لا يدل جزؤه على جزء معناه » ، فهى بهذا المعنى : « اللفظة الواحدة » . وتكون الكلمة جملة تامة ، كما فى قوله تعالى : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة . . . » فالمقصود هو الجملة التامة لا اللفظة المفردة ، وتكون أكثر من جملة ، فتسمى القصيدة من الشعر كلمة ، والخطبة كلمة .

وتجمع الكلمة على كلم وكلمات . والكلام اسم جنس ،
وقد يكون جمعا لكلمة .

والكلام بمعناه الاصطلاحي هو « ما تضمن كلمتين
بالاسناد » ، كما جاء في (التعريفات) للجرجاني ، ويوضح
ابن هشام ذلك بقوله : « الكلام قول مفيد مقصود . . . أى
الدال على معنى يحسن السكوت عليه » .

والكلم بمعناه الجرح ، يقال مكلوم الفؤاد أى مجروحه .

والكليم : الذى يكالمك أو الذى تكلمه ويكلمك . وكالمته :

حادثه . والتكالم أن يتكلم الواحد الى الآخر بعد هجر
وقطعية : « تكالم المتقاطعان ، أى كلم كل واحد منهما صاحبه ،
ولا يقال : تكلم . ورجل تكلام وتكلامه : جيد الكلام فصيح .
ورجل كلمانى كثير الكلام .

* * *

يقابل لفظ « الكلمة » فى اللغة اللاتينية : verbum

ومنه verbe بالفرنسية و verbo بالاسبانية . والمعنى
الأصلى لهذه اللفظة هو حسب (المعجم الموسوعى الكبير

لاروس) : « الشيء المنطوق chose énoncée » ، وتدل هذه الكلمة في جوهرها على الفعل والحركة ، رأى فيها النحويون القدامى العنصر الأساسى للشيء المنطوق ؛ وهى تدل على « الفعل » كما تعنى « الكلمة » التى هى التعبير الشفوى عن الفكر . وفى هذا المعنى يقول الكاتب والمؤرخ الفرنسى جول ميشليه J. Michelet : : « الانسان يسهر ، وكلمته تثير بلا انقطاع شعلة الحياة وتؤبدها » .

ونجد فى المعاجم الفرنسية لفظ Parole وأصله اللاتينى Parabolā و Paraula ، ويقابلها فى الاسانية Habla وفى الانجليزية Speech ولعل ترجمتها العربية « الكلام » .

يعرف قاموس روبير الكبير Grand Robert الكلام (parole) بأنه « ملكة التعبير ونقل الأفكار بواسطة نظام من الاصوات المنطوقة ، وهو أيضا ممارسة هذه الملكة » وفى هذا المعنى يقول مولير فى (مسرحية الزواج القسرى) « وهب الانسان الكلام ليعبر به عن فكره . ولما كانت الافكار هى صور الاشياء ، فان كاماتنا هى صور أفكارنا » .

وقد أدرك اللغويون العرب القدامى أن الكلام ليس مجرد أصوات ينطق بها أو رموز كتابية ترسم على الورق ، بل انها

كذلك المعانى التى تنطوى عليها الالفاظ . ويقول الراغب
الاصفهانى فى (الغريب فى مفردات القرآن) : « فالكلام يقع
على الالفاظ المنظومة وعلى المعانى التى تحتها مجموعة » .

يقول أصحاب الموسوعة الفلسفية التى أشرف على
وضعها م. روزنتال و ب. يودين (ترجمة سمير كرم) « ان
الكلام هو نشاط الانسان الذى به يتواصل مع أقرانه من الناس،
معبرا ومبلغا أفكاره بواسطة اللغة . والكلام هو استخدام
اللغة » .

هذا ونجد فى اللغة الفرنسية كذلك لفظة Mot وأصلها
اللاتينى Mottum ومعناها الاصلى « الزمجرة grognement » .
ويقابل Mot فى الانجليزية Word وفى الاسبانية Palabra
وتعرفها القواميس الفرنسية الحديثة بكونها صوتا أو مجموعة
من الاصوات المنطوقة « يقول العالم اللغوى دارمسترير
Darmesterer صاحب كتاب (حياة الالفاظ) بأنها « صوت أو
مجموعة أصوات منطوقة يعيها المتكلمون بها قيمة فكرية ... » .
وربما يكون المقابل العربى لـ Mot هو « اللفظة » .

ونعود الى (الموسوعة الفلسفية) التى سبقت الاشارة
اليها ، لنرى أن اصحابها يقسمون الكلام الى :

(1) سلبي (حسي) مثل الادراك الحسي وفهم كلام الآخرين – وهذا ما عبر عنه الراغب الاصفهاني بالكلام « المدرك بحاسة السمع » كما سئرى .

(2) ايجابي (فعلى) مثل النطق بأفكار ومشاعر ورغبات المرء الخاصة ... فى الحديث يسمع الانسان ويفهم ، وحين يسمع الانسان ويفهم فانه يتكلم .

وفضلا عن نوعى الكلام المعروفين وهما الشفوى والكتابى ، فهناك الكلام الداخلى وميزته الخاصة النطق غير المسموع للاصوات .

ويرى بعض الفلاسفة المحدثين أن الكلام الباطنى (أو الداخلى) هو تتابع صور سمعية تؤلف حياة الضمير .

معانى الكلام

ذهب ابن هشام الى أن الكلام ، من حيث معناه اللغوى ، يطلق على ثلاثة أمور :

أولها ، الحدث الذى هو التكليم ، وهو فى هذه الحالة يعمل عمل الافعال :

قالوا : كلامك هندا وهى مصغية
يشفيك ؟ قلت صحيح ذاك لو كانا

وفى هذا يقول أبو هلال العسكري فى كتابه (الفروق فى
اللغة) : « الفرق بين الكلام والتكليم هو أن التكليم تعليق
الكلام بالمخاطب فهو أخص من الكلام » .

ثانيها : المعنى الذى يقوم فى النفس ، فيسمى ذلك الذى
تخيلته كلاما ، قال الاخطل :

لا يعجبـنـك من خطيب خطبة
حتى يكون مع الكلام أصيلا

ان الكلام لفى الفؤاد ، وانما
جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ولعل الكلام بهذا المعنى هو ما عبرت عنه (الموسوعة
الفلسفية) التى سبق ذكرها ، **بالكلام الايجابى** .

والثالث : الالفاظ المنطوقة والمكتوبة والرموز ، أو كما
قال أبو هشام : ما تحصل به الفائدة سواء كان لفظا أو خطا
أو اشارة أو ما نطق به لسان الحال . والدليل على ذلك فى الخط :

« القلم أحد اللسانين » وتسميتهم ما بين دفتي المصحف (كلام الله) . والدليل عليه في الاشارة قوله تعالى : « آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا » (آل عمران ، 41) .

والدليل عليه فيما نطق به لسان الحال قول نصيب في مدح سليمان بن عبد الملك :

فعاجوا فأتثبوا بالذى أنت أهله
ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق

فاذا كانت هذه هى معانى الكلام ، فى اللغة ، فى نظر ابن هشام ، فان الراغب الاصفهانى يرى فى كتابه (الغريب فى مفردات القرآن) أن الكلم التأثير بحاسة السمع ، والكلم بحاسة البصر ، وكلمته جرحته جراحة بان تأثيرها ، ولاجتماعهما فى ذلك قال الشاعر :

والكلم الاصيل كأربع الكلم

« الكلم الاول جمع كلمة ، والثانى جراحات ، والاربع : الاوسع » .

فاذا اعتبرنا أن الاشارة نوع من الكلام ، كما سبق ذكره ، فان ادراك الكلام بهذا المعنى لا يكون بحاسة السمع ، بل بالبصر واستعمال الذهن لفهم المعنى الاصطلاحي للاشارات .

الكلام والقول

يعرف ابن سيده الكلام هذا التعريف المختضب : « الكلام القول » وهو تعريف يحتاج الى تمحيص وايضاح ، لذلك فان ابن منظور يعلق في (لسان العرب) على هذا التعريف بقوله : « وقيل الكلام ما كان مكتفيا بنفسه وهو الجملة ، والقول ما لم يكن مكتفيا بنفسه وهو الجزء من الجملة » .

ويذهب الراغب الاصفهاني الى أن الكلام عند كثير من المتكلمين لا يقع الا على الجملة المركبة المفيدة وهو أخص من القول ، فان القول يقع عندهم على المفردات ، والكلمة تقع عندهم على كل واحد من الانواع الثلاثة ، (الاسم والفعل والاداة) ، وقد قيل بخلاف ذلك .

وقال سيبويه — فيما نقله عنه ابن منظور — : « اعلم أن قلت انما وقعت في الكلام على أن يحكى بها ما كان كلاما لا قولاً . ومن أدل الدليل على الفرق بين الكلام والقول اجماع

الناس على أن يقولوا : القرآن كلام الله ولا يقولوا : القرآن قول الله « فكلام الله اذن أعم وأوسع . وقوله تعالى جزء من كلامه .

وعندى أن الكلام أعم من القول ، ذلك أننا حينما نقول « كلام العرب » فاننا نقصد ، ولا شك ، تراثهم اللغوى كله . جاء فى (المزهرة) للسيوطى أن بعض الفقهاء ، قال : « كلام العرب لا يحيط به الا نبى » والمعنى هنا لسان العرب وتراثهم الادبى . وفى هذا المعنى قال الامام الشافعى : « لسان العرب أوسع الالسنه مذهباً ، وأكثرها ألفاظاً ، ولا نعلم أن يحيط بجميع علمه انسان غير نبى » .

وكلام العرب هو شعرهم ونثرهم — قال السيوطى : « ذهب علماءنا أو أكثرهم الى أن الذى انتهى اليينا من كلام العرب هو الاقل . ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعر كثير وكلام كثير » ويقتضى الحال أن يكون المقصود بهذا « الكلام الكثير » هو النثر .

أما القول فهو مجرد حكاية جزء من الكلام . ومن قبيل ذلك — مثلاً — قول الفرزدق :

والشيب ينهض في الشباب كأنه
ليل يصيح بجانبه نهار

ويعنى بالليل هنا فرخ الكروان أو الحبارى ، وبالنهار
فرخ القطاة . فهذا « قول » نستشهد به من « كلام »
الفرزدق ، أى ديوانه الشعري كله .

ان « القول » شيء تحده ، فى حيز معلوم ، ألفاظ أو
عبارات محدودة نحو قولك – من كلام على بن أبى طالب :
« الناس أبناء الدنيا ولا يلام الرجل على حب أمه » . ان كلام
على بن أبى طالب كثير فيه خطبه ورسائله ومواعظه وما تضمنه
ذلك من حكم . والحكمة التى سقناها ما هى الا قول مستخلص
من كلام على بن أبى طالب .

والكلام لا يحده ، فى الغالب ، حيز معلوم ، فهو بذلك
شامل مطلق . مثال ذلك قول كثير :

لو يسمعون كما سمعت كلامها
خروا لعزة ركما وسجودا

فكلام عزة هنا مطلق ، أى كل كلام يصدر عنها باللفظ أو
بالإشارة والإيماء . ومن قبيل ذلك ، أيضا ، قول ابن أبى
ربيعة :

أشارت بطرف العين خيفة أهلها
إشارة محزون ولم تتكلم
فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا
وأهلا وسهلا بالحبیب المتیم

انها تكلمت بإشارة من لحظها ولم تقل شيئا باللفظ والنطق.
ومن الطريف في هذا الباب ، ما أوردته ابن حزم في
(طوق الحمامة) من أنواع الاشارة بلحظ العين ومعانيها
المختلفة ، اذ قال :

« فالإشارة بمؤخر العين الواحدة نهى عن الامر ، وتفتيرها
اعلام بالقبول وإدامة نظرها دليل على التوجع والاسف ،
وكسر نظرها آية الفرح .

والإشارة الى أطباقها دليل على التهديد ، وقلب الحدقة
الى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيهه على مشار اليه .

والإشارة الخفية بمؤخر العينين ككتهما سؤال ، وقلب
الحدقة من وسط العين الى الموق بسرعة شاهد المنع ، وترعيد
الحدقتين من وسط العينين نهى عام ، وسائر ذلك لا يدرك
إلا بالمشاهدة .

فهذا كله من قبيل الكلام بالاشارة ، تؤديه العين التى هى
— كما قال ابن حزم — « رائد النفس الصادق ، ودليلها
الهادى ومرآتها المجلوة التى بها تقف على الحقائق وتميز
الصفات وتفهم المحسوسات » .

واذا كان القول لا يصدر الا عن العاقل ، فان الكلام قد
يكون صامتا وقد نتخيل أنه يصدر عن غير العاقل ، من ذلك
قول المعرى فى (اللزوميات) :

أراك حسبت النجم ليس بواعظ
لبيبا وخلت البدر لا يتكلم

وقوله :

وعظ الزمان فما فهمت عظاته
وكأنه فى صمته لا يتكلم

والناس شتى من حلیم مظهر
جهلا يعز وجاهل يتحلم

والقول يسمع بالأذن حينما ينطق به اللسان ، ويقرأ
بالعين المبصرة حين يجرى به القلم ، أما الكلام فانه ، زيادة

على اشتراكه مع القول في الخاصيتين المذكورتين فإنه ينفرد
بخاصية الثالثة من حيث أنه قد يكون كلاما باطنيا كما سبق
أن بيناه .

الكلام هو الأسلوب

يرى ابن منظور « أن الكلمة الواحدة لا تسجى ولا تحزن
ولا تتملك قلب السامع ، وإنما ذلك فيما طال من الكلام فأمتع
سامعيه لعذوبة مستمعه ورقة حواشيه » ، ونلاحظ أن الكلام
بهذا المعنى يدخل في باب الأدب من حيث أنه يصاغ في قالب
جمالى . والواقع أن هذا الوصف لا ينطبق على كل كلام ،
فمنه ما هو بذىء أو متهاك ، ومنه ما لا يطرب السامع
ولا يسجيه ، ومنه ما هو حوشى أى وحشى وغريب ، ومنه
الواضح أى « الذى يفهمه كل سامع عرف ظاهر كلام العرب » ،
كما قال السيوطى فى (المزهر) .

ومن الكلام المشكل « أى الذى يأتية الأشكال من وجوه ،
منها غرابة لفظة » كما قال أبو فراس فى (فقه اللغة) ونقله
عنه السيوطى فى (المزهر) .

والكلمة ، بالافراد ، قد تكون طيبة أو خبيثة . جاء فى
التنزيل الكريم « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة

طبية أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها . . . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار » (ابراهيم ، 24 ، 25 ، 26) .
وسميت القصيدة من الشعر « كلمة » لأنها — كما قال أبو هلال العسكري في كتابه (الفروق في اللغة) — : « واحدة من جملة القصائد » ، والكلمة هي الخطبة ، يقال ألقى فلان كلمة ، أى خطابا .

ويقال فلان « نافذ الكلمة » ، أى أنه ذو نفوذ وسطوة .
وتأخذ الكلمة ، في علوم البلاغة أبعادا مختلفة . فتكون فصيحة حينما تكون خالصة من تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوى .

ويكون الكلام فصيحاً اذا كان خالصاً من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد . وقد أفاض القول في هذا علماء البلاغة من أمثال الخطيب القزوينى فى (الايضاح) ، وقدموا بين يدى ذلك شروحا وشواهد كثيرة يمكن الرجوع اليها . الا أنه من المناسب فى هذا المقام — ونحن نتحدث عن الكلمة والكلام — أن نبين الفرق بين الفصاحة والبلاغة كما أوضحه أبو هلال العسكري فى (كتاب الصناعتين) بشكل قد يلائم الذوق الادبى الحديث . قال : « . . الفصاحة تمام آلة البيان فهى مقصورة على اللفظ ، لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى ، والبلاغة انما

هى انهاء المعنى الى القلب فكأنها مقصورة على المعنى .
ويكون الكلام صناعة أو صنعة حينما يستعمله صائغوه ،
كل حسب موهبته ، وفى ذلك يقول أبو هلال العسكري :
« والناس فى صناعة الكلام على طبقات : منهم من اذا حاور
وناظر أبلغ وأجاد ، واذا كتب أحسن ، واذا حاور وأملى أساء .
ومنهم من يحسن فى جميع هذه الحالات ، ومنهم من يسيء
فيها كلها » فاللهم لا تجعلنا من هذه الزمرة الاخيرة !
ومن الكلام ما هو فضول ، وفضول الكلام الزائد منه
والذى لا فائدة فيه ، ومثله الحشو .

وقد تتسم الكلمة بالجمال والصوت معاً ، أو بأحدهما دون
الآخر ، وقد تخلو من الوصفين . قال حكيم الصين لاوتسو :
« رب كلمة جميلة وهى خالية من الصدق ، ورب كلمة صادقة
لا جمال فيها » .

اللغة والكلام

ان حدود الاختلاف فى المعنى بين « اللغة » و « الكلام »
ضيقة جدا قد تسبب بعض اللبس ، وقد لاحظنا أن عددا من
فقهاء اللغة العربية الأقدمين ربما استعملوا لفظ « الكلام »
وأرادوا به اللغة . وقد سمي ابن هشام كتابه المعروف « شرح
شذور الذهب فى معرفة كلام العرب » ، وهو يقصد بكلام

العرب لغتهم ولا شك ، مع ما تتضمنه هذه اللغة من شعر ونثر وحكم وأمثال . وهذا التضمن هو الذى يضع الحدود بين « الكلام » و « اللغة » بالمفهوم الحديث .

يقول ابن جنى فى الخصائص : « حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » .

ويعرف (لا روس القرن العشرين) اللغة language ، بأنها « كل وسيلة من وسائل التعبير عن الافكار » ويعرفها جيسبرسين Jespersen فى (الموسوعة البريطانية) بقوله : « انها — أى اللغة — كل وسيلة من وسائل الاتصال (أو التواصل) بين الناس الكائنات الحية » أما معجم لالاند

(Lalande, Vocabulaire technique et critique de la philosophie) فانه يقول ، ان اللغة هى كل نظام من الرموز يمكن استخدامه كوسيلة للاتصال (أو التواصل) .

ويمكن أن تشمل هذه التعريفات — زيادة على الحروف التى تستخدم فى الكتابة — عديدا من أنواع الرموز والاشارات التى تستعملها فئات من الناس فى أغراض خاصة ، من ذلك ، مثلا طريقة تعليم الصم والعمى ، ولغة الإشارة لبعض قبائل الهنود الحمر ، وطريقة (مورس) .

واذا كان ابن جنى يعرف اللغة بأنها « أصوات » ، كما سبق ان قلنا ، فان ابن الحاجب يعرفها في مختصره بقوله : « اللغة كل لفظ وضع لمعنى » بينما يقول الأسنوى في شرح منهاج الاصول : « اللغات عبارة عن الالفاظ الموضوعة للمعانى » .

ويحدث هاذان التعريفان اللذان نقلهما السيوطى في (المزهرة) بعض الالتباس فى فهمنا ، فاذا اعتبرنا أن المقصود بالمعانى هى الافكار ، فان ما قاله ابن الحاجب والاسنوى يمكن أن يكون تعريفا للكلام لا للغة ، وقد سبق أن استشهدنا بما قاله الراغب الاصفهانى وبعض المعاجم العربية فى تعريف الكلام.

على كل حال فاننى أفضل ما قاله ابن جنى فى تعريف اللغة ، ولو أنه لم يوضح أن اللغة تعتبر وسيلة للتواصل بين الناس ، فاقصر على القول بأنها « أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » ، والواقع أن التواصل موجود ، ذلك لان التعبير عن الاغراض لا يكون الا بين الفرد والفرد داخل الجماعة .

وما دمننا بصدد الخوض فى مسألة الاختلاف الموجود فى المعنى بين « اللغة » و « الكلام » فاننى لم أجد فى ذلك خيرا مما قاله الاستاذ العالم الصديق الدكتور تمام حسان فى كتابه

المبتكر (اللغة العربية : معناها ومبناها) : « فالكلام عمل واللغة حدود هذا العمل ، والكلام سلوك واللغة معايير هذا السلوك ، والكلام نشاط واللغة قواعد هذا النشاط ، والكلام حركة واللغة نظام هذه الحركة ، والكلام يحس بالسمع نطقا وبالبصر كتابة واللغة تفهم بالتأمل في الكلام ، فالذى تقوله أو تكتبه كلام ، والذى نقول بحسبه ونكتب بحسبه هو اللغة فالكلام هو المنطوق وهو المكتوب واللغة هي الموصوفة في كتب القواعد وفقه اللغة والمعجم ونحوها » .

وأود أن أضيف بأن الكلام نشاط انساني فردى في جوهره ، واللغة ظاهرة اجتماعية .

علم معانى الكلام

الكلمات تتطور ، من حيث المعنى والمبنى ، وذلك تبعا لتطور الزمان والناس الذين يستعملون الكلمات لأغراضهم اليومية .

فمثلا لم يكن أحد في عصر المأمون — وهو من العصور الإسلامية الزاهرة — يتصور أن كلمة « صوت » يمكن أن يكون لها في يوم من الأيام المعنى الذى يؤديه اليوم في الانظمة

الانتخابية حينما يقال أدلى ناخب أو عضو بصوته . وكذلك القول بالنسبة لكلمات من أمثال الطيار ، والخيل (قوة المحرك الآلى) والعقدة ، والتصميم (المخطط) ، والصاروخ ، والبرق (التلغراف) ، والتيار (الكهربائى) ، والاشتراكية ، والتضخم (المالى) ، والاعلام . . .

ليس هذا فقط ، بل حتى الكلمات التى نستعملها نحن قد يكون لها معان مختلفة بحسب ما يقصده كل منا . فكلمة « القانون » - مثلا ، قد تعنى - حسب المقصود - الآلة الموسيقية المعروفة ، أو الاحكام التشريعية الاساسية - وقل مثل ذلك فى كلمات كالحساب ، والجدول ، واللسان ، والفقرة ، والنظام ، والعهد ، والخاتم ، والورقة ، والعين .

ولدراسة معنى الكلمات وتطورها دراسة عملية نشأت فى العصر الحديث صناعة لغوية جديدة أطلق عليها (السمانتيات (Sémantique)) أو علم معانى الكلمات . وهذا العلم يعنى عناية خاصة لا بالكلمات نفسها ، بل بتفاعل معانى الكلمات أو بتجاوب الانسان مع الرموز والاشارات والانظمة الرمزية ، بما فى ذلك اللغة كما قال العالم اللغوى س.ا. هايكاوا ، الكندى الاصل ،

فى دراسة له نشرت فى كتاب (مغامرات العقل) ، ترجمة
الدكتور محمد فىاض .

وىضف هاىاكاءا قوله : « من الافكار الاساسية ، فى
علم تطور المعنى العام ، ان معنى الكلمات – أو غيرها من
الرموز – لا يكون فى الكلمات نفسها ، وانما يكون فى تجاوزنا
نحن مع معنى هذه الكلمات » .

الفكرة قبل الكلمة

نقرأ فى كتاب (أصل التفاوت بين الناس) لجان جاك
روسو : « اذا كان الناس فى حاجة الى الكلمة ليتعلموا التفكير
فانهم لأشد حاجة الى تعلم التفكير كى يجدوا فن الكلام » .

وقد اهتدى الى نظرية مشابهة لهذه فلاسفة سبقوا
روسو بعدة أحقاب نذكر من بينهم ابن طفيل الطبيب الفيلسوف
الاندلسى فى قصته الطريفة (حى بن يقظان) .

يحكى لنا ابن طفيل عن أول لقاء تم بين آسال وحى ابن

يقظان (*) ، في الجزيرة الخالية التي ولد فيها هذا وكبر وكانت قد أرضعته ظبية وهو طفل ، وقد قصد آسال هذه الجزيرة لينعزل فيها عن الناس ، بعد أن غادر بلاده .

يقول ابن طفيل عن ذلك اللقاء :

« ولما رأى آسال (ان حى بن يقظان) لا يتكلم ، أمن من غوائله على دينه ورجا أن يعلمه الكلام والعلم والدين . . . فشرع آسال في تعليمه الكلام أولا : بأن يشير له الى أعيان الموجودات ، وينطق بأسمائها ، ويكرر ذلك عليه ، ويحمله على النطق فينطق بها مقترنا بالاشارة ، حتى علمه الاسماء كلها ، ودربه قليلا قليلا حتى تكلم في أقرب مدة . فجعل آسال يسأله عن شأنه ، ومن أين صار الى تلك الجزيرة ، فأعلمه حى بن يقظان أنه لا يدري لنفسه ابتداء ولا أبا ولا أما أكثر من الظبية التي ربته . ووصف له شأنه . وكيف ترقى بالمعرفة حتى انتهى الى درجة الوصول » .

(*) الاشخاص الذين تدور حولهم حوادث القصة ثلاثة : حى بن يقظان ويرمز الى الفطرة البشرية السليمة والعقل النير التادر على الاهتداء الى الحقيقة . آسال ويرمز الى الانسان المستهير المتعلم الذى يحاول — وهو يعيش في مجتمع متمدن — التوفيق بين النصوص والعقل ، سلامان ، الذى يرمز الى الاتباع والتمسك بظاهرة النص في تلمس الحق وادراكه .

لقد تعلم حي بن يقظان التفكير حينما لم يكن في حاجة الى الكلام اذ كان يعيش وحده في جزيرة منعزلة ، وتوصل الى معرفة الله بالتفكير والتدبير ، وبلغ في ذلك درجة الوصول ، أي المعرفة المؤدية الى الاتصال بالذات الالهية .

ولم يصبح حي بن يقظان في حاجة الى الكلام الا حينما لقي مخلوقا من جنسه ، ودعته الضرورة الى التواصل عن طريق الاشارة أولا - وهو نوع من الكلام - ثم الالفاظ التي تعلمها من آسال ثانيا .

فالكلام ضرورة يفرضها في الغالب التقاء البشر ورغبتهم في التواصل والتعايش ، أما التفكير فهبة من الله خص بها بني آدم ، وميزهم بها على سائر مخلوقاته الحية .

يروى السيوطي في (الزهر) عن الامام فخر الدين الرازي واتباعه هذا القول : « السبب في وضع الالفاظ أن الانسان الواحد وحده لا يستقل بجميع حاجاته بل لا بد من التعاون ، ولا تعاون الا بالتعارف ، ولا تعارف الا بأسباب كحركات أو اشارات أو نقوش أو ألفاظ توضع بازاء المقاصد ، وأيسرها وأفيدها وأعمها الالفاظ » .

لغة بابل

جاء في سفر التكوين :

« كان الناس يستعملون لغة واحدة وكلمات واحدة

قال يهوه :

« هيا بنا ! لنهبط ! ولنخلط هناك كلامهم حتى لا يفهم بعضهم بعضا .

ومن هناك فرقهم يهوه شيعا في جميع أرجاء الارض ، فكفوا عن بناء المدينة .

وهكذا سميت بابل ، لأن يهوه خلط فيها كلام جميع سكان الارض ، ومنها فرقهم شيعا في كل أرجاء المعمور » .
هذه فقرات من قصة شتات أهل بابل كما وردت في سفر التكوين .

لم يكن لهؤلاء الناس — الذين شتتهم (يهوه) أى ذنب في الظاهر ، فهم انما كانوا يريدون أن يبنوا مدينتهم وأن يستقروا فيها تجمعهم لغة واحدة . ربما قصد (يهوه) الى منع سكان بابل من أن يطفوا ويتجبروا اذا قامت لهم حضارة وعمران ، وجمعتهم لغة واحدة .

وقد جاء الشتات كما يقصه (سفر التكوين) فتعددت
الالسن واللغات ، فكانت تلك لعنة (بابل) التى أصبحت رمزا
لاختلاف كلام الناس وتفرقهم شعوبا وقبائل .

ومن الطريف فى هذا الباب ما رواه السيوطى فى (المزهرة)
قال :

« أخرج ابن عساکر فى التاريخ بسند رواه عن أسد بن
مالك موقوفا ، قال : لما حشر الله الخلائق الى بابل بعث اليهم
ريحا ، فاجتمعوا ينظرون لماذا حشروا له ، فنادى مناد : من
جعل المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره واقتصد البيت
الحرام بوجهه فله كلام أهل السماء . فقام يعرب بن قحطان
فقال له : يا يعرب بن قحطان بن هود ، أنت هو ؟ فكان أول
من تكلم بالعربية المبينة ، فلم يزل المنادى ينادى من فعل كذا
وكذا فله كذا وكذا حتى افترقوا على اثنين وسبعين لسانا ،
وانقطع الصوت وتبليت الالسن فسميت بابل . وكان اللسان
يومئذ بابليا » .

وصدق الله عز وجل فى قوله : « وما كان الناس الا امة
واحدة فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم » .

كلمة الله

يخبرنا القرآن الكريم أن الله تعالى علم آدم الاسماء كلها ، أى علمه الكلام ، ومنه كلمة التوحيد .

ولما كانت العداوة هى الاصل فى الحياة على الارض :

« قلنا اهبطوا منها بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين » (البقرة ، 36) ، فان كلمة الله ، الدالة على وحدانيته والمفعمة بغفرانه ، كانت الطريق الى الهداية والطمأنينة والنظام : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » (البقرة 37) « فاما يأتاكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (البقرة 38) وكانت هذه الكلمة ميراثا يتركه السلف للخلف من أنبياء الله وأصفياه وأوليائه : « واذ قال ابراهيم لابيه وقومه اننى براء مما تعبدون ، الا الذى فطرنى فانه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون » (الزخرف ، 27) والمقصود هنا كلمة التوحيد . وقال تعالى : « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، والزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها » (الفتح ، 26) فهذه هى الهداية التى يمن الله بها على عباده المؤمنين المتقين . ومن معانى « الكلمة » فى هذه الآية الاخيرة الثبات والوفاء بالعهد .

وتخلق كلمة الله في أجواء نورانية تنير السبيل لأنبيائه وأصفياه ، وذلك في مثل قوله تعالى مخاطبا نبيه زكرياء : « فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب : ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسييدا وحصورا ونبيا من الصالحين » (آل عمران ، 39) .

وتصدر عن الله كلمة تتجسم فى صورة نبي من أنبيائه الطاهرين : « اذ قالت الملائكة : ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم » (آل عمران ، 45) .

وتأتى الكلمة بمعنى الحكمة الالهية والمشية الربانية التى تسبق الحوادث والظواهر والموجودات : « وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم » (يونس ، 19) « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم » (الانعام ، 115) قال الراغب الاصفهاني فى (الغريب فى مفردات القرآن) « ان الكلمة فى هذه الآية معناها القضية فكل قضية تسمى كلمة سواء كان ذلك مقالا أو فعلا » . وانا أرى أن الكلمة هنا تعنى الحكم والقضية فى آن الوقت ، وحكم الله صادق وعادل لا يقبل التبديل ولا التحريف .

وجاءت الكلمة بمعنى الحكم أيضا في قوله تعالى « كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون (يونس ، 96) وفي قوله تعالى : ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون (يونس ، 96) .

وكلمة الله لطفه وجزاؤه العادل : « وتمت كلمة ربك الحسنی على بنی اسرائیل بما صبروا » (الاعراف ، 137) .
وكلمته ارادته تعالى ومشيعته التي تعلو على كل شيء :
« وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم » (التوبة ، 41) .

ومن معانى الكلمة في القرآن الكريم « الوعد » كما جاء في قوله تعالى : « أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من النار (الزمر ، 19) والكلمة تقابل الكذب والفحش كما يفهم من هذه الآية الكريمة : « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا (الكهف ، 51) وتؤدي معنى الوعد الكاذب في قول الله عز وجل : « حتى اذا حضر أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت . كلا ، انها كلمة هو قائلها » (المؤمنون ، 100) .

وجاءت بمعنى الحكم الفصل في قوله تعالى : « أم لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضى

بينهم » (الشورى ، 21) وفي معناها : « ولولا **كلمة** سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم » (طه ، 129) .

وفي القرآن الكريم آيات ورد فيها ذكر الكلام ، والكلمات ، والكلم (جمعا) والتكلم (في صيغة الفعل) .

قال تعالى : « يريدون أن يبدلوا **كلام** الله ، قل لن تتبعونا ، كذلك قال الله من قبل » (الفتح ، 15) ولعل المراد بالكلام هنا أوامر الله . وقال تعالى « فتلقى آدم من ربه **كلمات** فتاب عليه » (البقرة ، 37) . ويفهم من ظاهر الآية أن الله تعالى غفر لادم خطيئته بعد استغفاره .

وكلمات الله أوامره ونواهيه وحكمته البالغة وآياته في الاكوان والخلائق وعلمه بخفايا الأمور وظواهرها . وعلى ذلك تدل عدد من الآيات الكريمة التي نذكر منها :

« قل لو كان البحر مدادا **لكلمات** ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي » (الكهف ، 109) ، « فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله و**كلماته** » (الاعراف ، 158) « ويريد الله أن يحق الحق **بكلماته** (الانفال ، 7) .

وجاء « الكلم » بمعنى القرآن الكريم في قوله تعالى :
« يحرفون **الكلم** عن مواضعه » (النساء 42 – المائدة
12) .

كما جاء بمعنى الدعاء الذى يتوجه به المؤمن الى ربه ،
وذلك في قوله تعالى : « اليه يصعد **الكلم** الطيب ،
والعمل الصالح يرفعه » (فاطر 10) .

وفي القرآن الكريم آيات ورد فيها فعل « التكلم » نذكر
منها قوله تعالى :

« اليوم نختم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم وتشهد
أرجلهم بما كانوا يكسبون » (يس ، 65) .

ويعلم الله كيف تتكلم الايدي شاهدة بأعمال اصحابها ،
ان خيرا أو شرا .

« **وكلم** الله موسى **تكليما** » (النساء ، 164)
أى أسمع كلاما من غير وساطة ملك ، ولا يمكن لعقولنا أن
تتصور كيف تم هذا التكليم الكريم .

وقد سبق أن ذكرت في معرض التحدث عن الكلام
بالإشارة قوله تعالى : « آيتك ألا **تكلم** الناس ثلاثة أيام
الا رمزا » (آل عمران ، 41) .

وقال تعالى : « واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة **تكلمهم** » (النمل ، 82) أى تخاطبهم ، وقيل : تجرحهم من الكلم أى الجرح . ولعل المخاطبة أقرب الى المعنى المقصود اذا نظرنا الى الجزء الاخير من الآية « أن الناس كانوا بآياتنا يوقنون » وقال عز وجل : « وما كان لبشر أن **يكلمه** الله الا وحيا أو من وراء حجاب » (الشورى ، 51) والمعروف أن الله قد خص نبيه موسى بأن كلمه تكليما .

وفي اللاهوت المسيحى المستمد من تعاليم يوحنا أن الكلمة — Verbun باللاتينية — هو الشخص أو الاقنوم الثانى الذى يجسده المسيح عيسى ضمن الثالوث المعروف عند المسيحيين الكاثوليك — جاء فى انجيل يوحنا « فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله » (الاصحاح الاول) . ولا حاجة الى القول بأن عقيدة التوحيد الاسلامية تنكر التثليث وتاليه عيسى .

وقد أخذت التعاليم المسيحية الحديثة المستمدة من (سان توما) بتفسير آخر لكلمة الله لخصه (المعجم الموسوعى الكبير لاروس) كما يلى :

« أول ما صدر عن الله : الكلمة التي هي كون (أوتولد)
حقيقى ؛ وتصدر الكلمة بحسب معرفة الله لجميع الاشياء » .

يقول السيد الشريف الجرجانى فى (التعريفات) « وكلمة
الحضرة اشارة الى قوله : كن ! فهى صورة الارادة الكلية » .

ونقل الدكتور صليبا فى معجمه الفلسفى عن الفيلسوف
الفرنسى (مالبرانش N. de Malebranche) قوله : « الكلمة الالهية
من جهة ما هى عقل كلى تعقل المعانى الاولى لجميع الكائنات
المخلوقة أو الممكنة » وقوله : « وجميع العقول ليس لها الا
معلم واحد ، وهو الكلمة الالهية » . (انظر : أحاديث حول
الميتافيزقا والدين ، Entretiens sur la métaphysique et la religion)

علم الكلام

يمكننا أن نقول بأن « الكلام » هو علم الجدل فى العقيدة
على النهج الاسلامى ؛ قال الشريف الجرجانى فى (التعريفات) :
« الكلام علم يبحث فى ذات الله تعالى وصفاته وأحوال الممكنات
من المبدأ والمعاد على قانون الاسلام . . . وقيل : الكلام هو
العلم بالقواعد الشرعية الاعتقادية المكتسبة عن الادلة » وواضح
أن « الادلة » هذه هى التى تجعل من « الكلام » علما قائما
على الجدل .

واذا كان المعنى الأصلي للجدل في لغة العرب هو « اللدد في الخصومة والقدرة عليها » ، فان معناه عند الفلاسفة « هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات . والغرض منه الزام الخصم واقحام من هو قاصر عن ادراك مقدمات البرهان » — كما في (التعريفات) للجرجاني ، والمقصود به تصحيح كلام الخصم ، « وهو الخصومة في الحقيقة » حسب نفس المصدر . وهو بهذا المعنى يقترب الى حد ما من لفظ Dialectique الفرنسى ، وذلك اذا جردناه من التعقيدات التى يضيفها اليه أصحاب المذهب الذين ينعتونه بالجداء المادى .

فالجدل اذن نوع من « الكلام » القائم على الحجة والبرهان ، بل حتى على اللدد والسفسطة .

يقول الامام الغزالى : المقصود من الكلام « حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة » . ويبدو أن هذا القول انما يتناول المقصود من علم الكلام فى أول نشأته ، وذلك أن من يسميهم الامام الغزالى بأهل البدعة يعتبرون أنفسهم ويعتبرهم غيرهم من « المتكلمين » ، وهم — إن شئت — الطرف الخصم فى هذا العلم الذى أعطى للكلام وطاقاته الخفية بعداً خاصاً .

تتابع المعانى

الآن وقد وصلت الى نهاية المطاف ارى أن هذا المقال ربما يبقى مبتورا لو لم أختمه بعرض موجز لبعض الالفاظ التى تقترب بشكل ما من الكلمة والكلام والتى تحضرنا غالبا بطريق تتابع الافكار وتداعيتها . ومعلوم أن هذا الباب قد حظى بعناية بعض فقهاء اللغة وواضعى معاجم المعانى من القدماء والمحدثين .

ولنكتف فى ذلك بأمثلة من تلك الالفاظ والتعابير نوردها فيما يلى :

الكلمة . العبارة ، اللفظة ، المفردة ، الجملة ، المقولة ، القصيدة ، الفكرة ، الخطبة ، العبارة ، المترادف ، المتوارد . . .

الكلام . النطق ، القول ، اللهجة ، الحديث ، اللغة ، اللغو ، الجملة ، الاسناد ، الوضع ، الجدل ، الحوار ، الهمس ، الهمس (الكلام الباطنى) ، العى ، الحصر ، الثثرة ، الهذيان ، الهدر ، الرطانة (وهو كل كلام لا يفهمه العرب) التعبير ، الاعراب ، المنطوق ، المفهوم ، البذاءة ، الذلاقة ،

السلطة ، الركابة ، الايجاز ، الاطناب ، البلاغة ، الفصاحة ،
البيان ، المعنى . . .

* * *

وبعد ، فان قوام الكلمة الفكرة ، وحليتها حسن التبليغ
مع القصد ، وحكمتها أن تقرب الناس بعضهم من بعض ، وان
تضفى على المجتمع البشرى معناه الخلقى ، وان تجعل المحنية
أمرا مقبولا مستساغا . واذا لم تكن الكلمة كذلك فخير منها
السكوت . وبعض السكوت أبلغ من الكلام المنطوق .

محمد العربى الخطابى

الرباط